

المختار من شعر أبي الطيب المتنبي

في هذا القسم المخصص لديوان الشاعر نتحرى في الاختيار تقديم شعر الشواهد الذي يفسر لنا أخبار حياته ، ويدل على مبلغ الأصالة في تفكيره الذي يستوحيه من مزاجه ومن ثقافته بدافع من طبعه ، وتلك هي الشواهد التي يصح أن نخرج منها بفلسفة الشاعر في مسائل الحكمة والخلق ، وذوق التعبير والبيان ، وينطوي فيها كل شعر مطبوع له ، ولو كان من أغراض المديح والتخلص ، التي تحسب من عرض القول ونوافل النظم . وهي لا تخلو في كل شاعر مطمح من دلالة على سليقته وأصالة فكره وشعوره .

ولم يكن المتنبي منفرداً بين كبار شعراء العربية بثقافته الدينية أو باطلاعه على قصص الأنبياء وأخبار الدعوات والمذاهب المعتقدة أو غير المعتقدة ، فربما كان منهم من يعلم علمه بها أو يزيد عليه ، ولكنهم - جميعاً - لم يكن منهم واحد تسبق أسماء الأنبياء والدعاة إلى خطره وهو ينظم قصائده ، كما سبقت هذه الأسماء إلى خاطر المتنبي في جميع أغراضه ، ولولم تكن لها صلة بالبحث في العقيدة أو الدين .

فهو يقول في قصيدة من شعر المديح :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه

لَمَّا رأى الظلمات صِرْنَ شَمُوساً

أو كان صادفَ رأسَ « عازر » سيفه

في يوم معركة لأعيا « عيسى »

أو كان لجُ البحرِ مثلَ يمينه

ما انشقَّ حتى جاز فيه « موسى »

ويمدح أيضاً فيقول :

وكانما « عيسى ابنُ مريم » ذكره

وكان « عازر » شخصه المقبور

ويقول في المديح أيضاً :

فأجرك الإله على عليل

بعثَ إلى « المسيح » به طبيبا

ويمدح آخر فيقول :

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ

سفر قان والتوراة والإنجيلا

ويقول في الشكوى :

ما مقامي بأرض نَخْلَة إلا

كمقام « المسيح » بين « اليهود »

أنا في أمة تداركها الله

ه غريب كـ « صالح » في « ثمود »

ويقول واصفاً :

ملاعبُ جنة لو سارَ فيها

« سليمان » لسار بترجمان

ويقول راثياً :

خرجوا به ، ولكل باك خلفه

صعقات « موسى » يوم دك الطُورُ

ويقول مادحاً :

أنى يكون ، أبا البرية ، آدمُ

وأبوك ، والثقلان أنت ، محمدُ

ويقول مستعظفاً :

فلا تسمعن من الكاشحين

ولا تعبان بعجل « اليهود »

ويقول متغزلاً :

يرشَقُن من في قُبَلات

هن أحلى فيه من التوحيد

ويشير إلى قصة خاتم « سليمان » الذي ضاع
وتفقدته صاحبه أربعين يوماً ، ليقول إنه يزيد على
تلك الأربعين ، إذ يتفقد سكان الأطلال تفقد
الشحيح :

بليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في التُرب خاتمةُ
ويذكر دعوة « ماني المحوسي » إذ يقول متغزلاً :
وكم لظلام الليل عندي من يد
تخبّر أن « المانوية » تكذبُ
وهو لهجٌ بذكر النبوات والدعوات يدل على
اشتغال دائم بها ، وليس قصاره أن يدل على
مجرد العلم بها كما علم بها غيره من الشعراء .
وفي شعره ما يدل على إحاطة بمذاهب الفلسفة
التي تنكر العقيدة على كل وجهة من وجهاتها في
إجمالها ، فقد جمعها بقوله هاجياً « لكافور » :
فإنه حجة يؤذي القلوب بها
من دينه الشك والتعطل والقدمُ

إذ كان الفلاسفة المنكرون لا يخرجون عن
مذهب من هذه المذاهب الثلاثة : وهي الشكوكية ،
والإلحاد ، والقول بقدّم العالم بغير حاجة إلى فاعل ،
وإن لم ينكروا وجود الإله كما ينكره الملحدون ...
وإشارة المتنبي إلى مصادر الفلسفة اليونانية إشارة
قارى متعمق يعرف من أين جاءت المذاهب التي
كان المرددون لأقوال الفلاسفة على السماع ينسبونها
كلها تارة إلى أرسطو وتارة أخرى إلى « أفلاطون » ،
وحقيقة الكثير مما نسب إلى « أفلاطون » و« أرسطو »
أنه من عمل « الإسكندر الافروديمي » تلميذ
« أفلوطين » وملخص كتاب « الأثولوجيا » الذي
عرف باسم الربوبية ، واعتقد قراؤه بالعربية أنه من
كتب الفلاسفة الأولين ، وإلى الإسكندر هذا يشير
المتنبي حين قال يمدح ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم
جالست رسطاليس والاسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه

متملكاً ، متبدياً ، متحضراً

وليس للحكمة اليونانية مصادر أوفى من مصادر
هؤلاء الحكماء الثلاثة ، وقد ظن بعض شراح الشاعر
أنه عني بالإسكندر سميّه ذا القرنين ، وهو خطأ يدل
على الفارق بين اطلاع الشاعر على موضوعاته
الفلسفية ، واطلاع الأكثرين من المتأدبين في زمانه .
وإذا كان هذا محصوله من فلسفته الثقافية ، فقد
يستخرج القارىء من فلسفته المطبوعة مذهباً كاملاً
من مذاهب الإيمان بالقوة كذهب « نيتشه » في جملة
قواعده ، فهو دائم التفرقة بين أخلاق السادة وأخلاق
العبيد في مواضع شتى من شعره ، إذ يقول :

وما في سطوة الأرباب عيبُ

وما في ذلّة العبدان عارُ

أو يقول :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتهُ

وإن أنت أكرمت اللئيم تمرداُ

أو يقول مستنكراً التسوية بين الخليقتين :

تشابهت البهائم والعبيدُ

علينا والمولى والصميمُ

أو يقول في هذا المعنى :

وشرّ ما قنصته راحتي قنصُ

شهبُ البزاة سواء فيه والرحمُ

ولما يطلب « الامتياز » ولو بين العين والعين ،

كما قال :

هو الجِدُّ حتى تفضل العينُ أختها

وحتى يصير اليومُ لليوم سيّداُ

ولأنما الحياة أبغضُ من الموت إذا تساوى فيها حفظ
وحظ من هو دونه :

وما موتٌ بأبغض من حياة

أرى لهمُ معي فيها نصيباً

ولأنما كان طلب القوة والتمام ، لا طلب البقاء
والسلامة ، هو قانون الحياة المثلى في عقيدة «أبي
الطيب» قبل عقيدة «نيتشه» بعدة قرون :

ولم أرَ في عُيوب النَّاس عيباً

كنقصِ القادرين على التَّمام

وقد ناقش مذهب «داروين» في حب البقاء بكل
صحة يدينُ بها فيلسوفُ القوَّة وهو يأنف من القناعة
بمجرد البقاء ، فليس معنى حب البقاء عند طالب المجد
إلا أنه يبقى في عزة مجده ، ولو كلفه ذلك أن يقتحم
موارد الهلكة :

أرى كلَّنا يبغي الحياة لنفسه

حريصاً عليها مُستهماً بها صبيّاً

فحبُّ الجبانِ النفسَ أورثه الثَّقَى

وحبُّ الشجاعِ النفسَ أوردهُ الحرباً

وذاك أن مذاق الموت أطيب من مذاق الهوان
عند طالب العزة والكرامة ، وإن تساوى الأجزاء
والأذلاء في حب الحياة :

ومُرَادُ الثُّفوس أهونُ من أن

نتعادى فيه وأن نتفانى

غيرَ أنَّ الفتى يلاقى المَنَيا

كالِحِياتٍ ولا يلاقى الهواناً

أو كما قال :

فشرُّ الحِمَامِينَ الرُّؤَامِينَ عِيشَةٌ

يَدُلُّ الَّذِي يَخْتَارُهَا وَيُضَام

وغاية الصدق في الإبانة عن الطبع ، والتعبير عن
الشعور بوحى السليقة أن يكون الشاعر محيطاً باللباب

من فلسفة القوة إحاطة الفيلسوف العالم الذى يعالجها
تفكيراً ، أو بحثاً ودراسة لأخلاق البطولة في حاضر
زمنه ، أو في صحائف التاريخ .

بل غاية الصدق للطبع الأصيل أننا قد نستخرج
أصول «فلسفة القوة» من وصف هذا الشاعر لكل
ظاهرة من ظواهر الحياة ، وكل ظاهرة من ظواهر
الطبيعة ، فضلاً عن وصف البطولة الإنسانية على
مثالها الأعلى في أشخاص مُمدوحيه ، ولا سيما مُمدوحه
ذلك البطل الحق منهم «سيف الدولة بن حمدان» .
ففى بعض مدائح له — بعد بنائه لثغر «الحدَث»

يقول :

يكلِّفُ «سيفُ الدولة» الجيشَ همه

وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلِّبُ عندَ الناسِ ما عندَ نفسه

وذلكَ مالا تدعيه الضراغم

تفدَّى أتمُّ الطيرَ عمراً سلاحه

نسورُ الفلا أحداثُها والقشاعِمُ (١)

وما ضرَّها خَلَقٌ بغيرِ مَخَالِبِ

وقد خَلِيقَتْ أَسِيَّافُهُ والقَوَائِمُ

هل الحدَثُ الحمراءُ تعرفُ لونها

وتعرفُ أئِ السَّاقِيَيْنِ الغَمَامُ

سَقَتْهَا الغَمَامُ الغُرُّ قبلَ نزوله

فلمَّا دنا منها سَقَتْهَا الجَاجِمُ

بناها فأعلى ، والقَنَا يَقْرَعُ القَنَا

ومَوْجُ المنايا حولَها مُتَلَاظِمُ

وكان بها مثلُ الجنونِ فأصبحت

ومن جثث القتلى عليها تَمَامُ (٢)

(١) القشاعِم : جمع قشع ، النسب الكبير .

(٢) التسمية : تعويذة تملق على المرضى والمجانين .

وكيف ترجى الرومُ والرُّوسُ هدْمَهَا
وذا الطعنُ أساسُ لها ودعائِمُ

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الحَدِيدَ كَأَنَّمَا
سَرَوْا بِجِيَادٍ مَالَهُنَّ قَوَائِمُ

خَيْسُ بَشْرِقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ
وَفِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَائِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسَنٍ وَأُمَّةٍ
فَمَا يَفْقَهُمُ الْحُدَاثُ إِلَّا التَّرَاجِمُ

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفُ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسِمُ
تَجَاوَزْتَ مَقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّهْيِ
إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ

وَبِمِثْلِ هَذِهِ الرُّوْعَةِ يَقَعُ فِي النَّفْسِ وَصْفُهُ لِلْأَسَدِ
مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا فَارِسًا آخَرَ ، يَذْكُرُ بَبُطُولَةَ لَا تَقْلُ
عَنْ بَبُطُولَةِ « سَيْفِ الدَّوْلَةِ » وَهُوَ « بَدْرُ بْنُ عِمَارٍ »
الَّذِي كَانَ يَلْقَى الْأَسُودَ بِسُوطِهِ ، وَبِهِجْجَهَا عَنْ
فَرَائِصِهَا وَهِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ ضَرَاوَةً وَبَأْسًا ! قَالَ
« يَخَاطَبُ ابْنَ عِمَارٍ » :

أَمُعَقَّرَ اللَّيْثَ الْهَزْبَرِ بِسُوطِهِ

لَمَنْ أَدَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمُصْقُولَا
وَقَعْتَ عَلَى الْأَرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ

نُضِدَتْ بِهَا هَامُ الرِّفَاقِ تَلُولَا

وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِبَا

وَرَدَ الْفَرَاتِ زَيْبُهُ وَالنَّيْلَا

مَتَخَضَّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَا يَسُ
فِي غَيْبِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيْلَا
مَا قَوَّلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَّنَا

تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ

لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا

يَطُ الشَّرَى مَتَرَفَقًا مِنْ تَيْبِهِ

فَكَأَنَّهُ آسُ يَجْسُ عَلِيْلَا

وَيُرْدُ عَفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ

حَتَّى تُصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلَا

قَصَرَتْ خَافَتُهُ الْخَطَى فَكَأَنَّمَا

رَكِبَ الْكَمَى جَوَادَهُ مَشْكُولَا

أَلْقَى فَرِيَسَتَهُ وَبَرَبَرًا دُونَهَا

وَقُرُبَتْ قُرْبًا خَالَهُ تَطْفِيلَا

فَتَشَابَهَ الْخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ

وَتَحَالَفَا فِي بَذْلِكَ الْمَأْكُولَا

مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ

حَتَّى حَسِبْتَ الْعُرْضَ مِنْهُ الطُّولَا

وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ

يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحَضِيضِ سَبِيلَا

وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنُ فَادَتْنِي

لَا يَبْصُرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا

أَنْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكُ

فِي عَيْنِهِ الْعَدَدُ الْكَثِيرَ قَلِيلَا

وَالْعَارُ مَضَاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ

مِنْ حَقْفِهِ مِنْ خَافَ مِمَّا قِيلَا

سَبَقَ التَّقَاءَ بُوْبَةً هَاجِمٍ
 لَوْ لَمْ تُصَادِمَهُ لَجَازَكَ مِيلاً
 خَدَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحَتْهُ
 فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلاً
 قَبِضَتْ مَنِدَّتُهُ يَدَيْهِ وَعُنُقُهُ
 فَكَأَنَّمَا صَادَفَتْهُ مَغْلُولاً

وكهذا الوصف في صدق الشعور بالقوة الحيوية
 حيث كانت ، قوله في وصف فرس خرج به
 للصيد :

وَيَوْمَ كَلِيلُ الْعَاشِقِينَ كَمَنَنْتُهُ
 أَرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسُ أَيَّانَ تَغْرُبُ
 وَعَيْنِي إِلَى أَدُنِّيْ أَغْرَى كَأَنَّهُ
 مِنْ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبُ
 لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جَسَمِهِ فِي إِهَابِهِ
 تَجِيءُ عَلَى صَدْرِ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
 شَقِيقَتُهُ بِهَ الظُّلُمَاءِ أَدْنَى عَيْنَانِهِ
 فَيَطْغَى وَأَرْخِيهِ مَرَاراً فَيَلْعَبُ
 وَأَصْرَعُ أَى الْوَحْشِ قَفْقِيشَتُهُ بِهِ
 وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلُهُ حِينَ أُرْكَبُ
 وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ
 وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مِنْ لَا يُجَرَّبُ

والبحيرة ماء وهواء حين تلقى عليها النظر بين
 ظواهر الطبيعة ، ولكنها ميدان تصطرع فيه القوى
 حين ينظر إليها « أبو الطيب » كما نظر إلى « بحيرة
 طبرية » :

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرِكَ الْبُحَيْرَةَ وَالْ
 غَوْرُ دُنَى وَمَاؤُهَا شَمِيمٌ (١)

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مَزِيدُ
 تَهْدِيرُ فِيهَا وَمَا بَيْنَهَا قَطْمٌ (٢)
 وَالطَّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسِبُهَا
 فَرَسَانِ بُلْدَقٍ تَخُونُهَا اللَّسَجَمُ
 كَأَنَّهَا — وَالرَّيَّاحُ تُضْرِبُهَا
 جَدِشًا وَغَيَّ هَازِمٌ وَمَنْهَزِمٌ

تَغْنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا
 وَجَادَتِ الرُّوضَ حَوْلَهَا الدَّيْسَمُ
 فَهَيَّ كَمَاوِيَّةَ مُطَوِّفَةٍ
 جُرْدَ عَنَّا غِشَاوُهَا الْأَدَمُ

وإذا اتسعت فلسفة القوة لشيء من فلسفة اللذة إلى
 جانبها سمعت لها من « المتنبي » نغمة نادرة تستغريها
 في مثل قوله :

أَنْعَمُ وَلَدٌ فَلَيْلًا مُورٍ أَوْ آخِرُ
 أَبَدًا إِذَا كَانَتْ لَهْنٌ أَوَائِلُ
 مَا دُمْتُ مِنْ أَرْبِ الْحِسَانِ فَإِنَّمَا
 رَوْقُ الشَّبَابِ عَتَلَيْكَ ظِلُّ زَائِلُ
 وَلَا تَكَادُ تَسْتَغْرِمَهَا حَتَّى تَسْمَعَ فِي الْقَصِيدَةِ نَفْسَهَا
 نَغْمَةً لِلْحُبِّ كَأَنَّهَا قَعْقَعَةُ السَّلَاحِ ؛ إِذْ يَقُولُ فِي وَصْفِ
 الْحِسَانِ :

الرَّامِيَاتُ لَنَا وَهْنٌ نَوَافِرُ
 وَالْحَاتِلَاتُ لَنَا وَهْنٌ غَوَافِلُ
 مِنْ طَاعِنِي تُغَيِّرُ الرِّجَالَ جَاذِرُ
 وَمِنْ الرَّمَاكِ دَمَالِجٌ وَخِلَافِلُ
 وَلِذَا آسَمُ أَغْطِيَةِ الْعُيُونِ جَفُونُهَا
 مِنْ أَنَّهَا عَمَلُ السَّيُوفِ عَوَامِلُ

(٢) القطم : الشهوة .

(٣) جمع ثغرة ، وهي ذفرة النحر بين الترقوتين .

(١) شيم : أى بارد .

لقد أباحتك غشياً في مُعاملة
مَنْ كُنْتَ مِنْهُ بِغَيْرِ الصَّدَقِ تَنْفَعُ

إنَّا لَفِى زَمَنِ تَرْكُ القَبِيحِ بِهِ
مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجَالُ
لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ
الجودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَالُ
ذِكْرُ الفَقِي عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ
مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ

لَوْلا العُقُولُ لَكَانَ أَذْنَى ضِعْفٍ
أَذْنَى إِلَى شَرْفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

إِذَا سَاءَ فَعَلَ الْمَرْءُ سَاءَتْ ظَنُونُهُ
وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهَمٍ
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عَدَاتِهِ
وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلَمٍ
لَمَنْ تَطَلَّبَ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا
سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ؟

تَرِيدِينَ إِدْرَاكَ الْمَعَالَى رَخِيصَةً
وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِسْرِ النَّحْلِ

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَارًا
تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

وَمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى
وَلَا تُنْقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا

وعلى شرط الإباء والأنفة تكون الحسان من أرب
الفتى ، لأن الفتى - وروق الشباب يظله - هو أيضاً
من أرب الحسان ، وعلى شرط الإباء والأنفة كذلك
تكون للمليحة ساعتها ثم يفترقان :

وَلِدُخْوَدٍ مَنَى سَاعَةً ثُمَّ بَيْنَنَا
فَلَاةٌ إِلَى غَيْرِ اللِّقَاءِ تَجَابُ
وَلَا يَكُونُ مَنْزِلُ اللِّذَاتِ أَبَدًا غَيْرَ مَنْزِلِ الْكَرَامَةِ
وَالْتَبَجِيلِ :

وَمَا مَنْزِلُ اللِّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلِ
إِذَا لَمْ أَبْجَلْ غِنْدَهُ وَأَكْرَمْ

وندر من الشعراء من يحتفظ بطابعه في مفرداته
ومتفرقاته كما يحتفظ بها في مطولاته أو جملة الأبيات
من مقطوعاته ، وأبو الطيب من أوائل هؤلاء النوادِر
الذين يعرفون بالبيت الواحد من أشعارهم ، بل بالشرطة
المنفردة من البيت ، لأنه قد عرف بأبياته التي سارت
مسير الأمثال بين جمهرة من رواة الشعر لم تعرفه بغير
تلك الأبيات ، ويقع النظر على أمثاله هذه حينما تقلبت
أمامه صفحات الديوان بغير إطالة ولا إنعام في البحث
والاختيار ، وهذه طائفة متفرقة منها تدل عليها ولا تحصى ،
ونتبعها نحن بين صفحات الديوان على هذا المنوال :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَامُ

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا
مِفَاتِيحُهُ الْبَيضُ الْخَفَافُ الصَّوَارِمُ

وَمَنْ يَجْعَلِ الضَّرْغَامَ بَازًا لَصَيْدِهِ
تَصِيدُهُ الضَّرْغَامُ فِيمَا تَصِيدُ

ما كُلُّ ما يَتَمَنَّى المرءُ يَدْرِكُهُ
تَجْرَى الرِّيحُ بما لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا ظَهَرَ سَابِغٌ
وَأَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً
لِمَنْ بَاتَ فِي نَعَمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَحِيدٌ مِنَ الْإِخْوَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
إِذَا عَظُمَ الْمُطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى
عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقِهِ بُدُّ

فَلَا مَبْجَدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

إِنَّمَا تَنْجَحُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرِّ
إِذَا صَادَقَتْ هَوَى فِي الْفُؤَادِ

إِنَّ السَّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ
وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ الْمِخْلَبِ السَّبْعُ

وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فَعْلِهِ وَالْخَلَائِقِ

إِلْفٌ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْدِ
نَفْسٌ أَنَّ الْحِمَامَ مَرُّ الْمَدَاقِ

وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ
وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

وَلَيْسَ يَصِيحُ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ
إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ
فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرءِ وَلَّى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفْ فَمَا مَـ
لَ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سَبَاعٌ
يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاعْتِيَالاً
مَنْ أَطَاقَ التَّمَاسَّ شَيْءٌ غِلَاباً
وَاعْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاً

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ
ذَا عَفَّةٌ فَلَعَلَّةٌ لَا يَظْلِمُ

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ
إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

شَرُّ الْبِلَادِ بِلَادُ لَا صَدِيقَ بِهَا
وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصِصُ

مَنْ الْحَلْمُ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ
إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الْحَلْمِ طُرُقُ الْمَظَالِمِ

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا
وَبِالنَّاسِ رَوَى رُمُوحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ

فليس بحرّوم إذا ظفروا به
ولا في الردى الجارى عليهم بأثم

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا

ولو أن الحياة تبقّى لحي
لعدّنا أضلنا الشجمانا
وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تموت جبانا

كل ما لم يكن من الصعب في الأثر
ففس سهل فيها إذا هو كانا

إذا غمرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون الشجوم
فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم
يرى الجبّاء أن العجز عقل
وتلك خديعة الطبع اللّثيم

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأساع منه
على قدر القرائح والفهوم

من كان فوق محلّ الشمس موضعه
فليس يرفعه شيء ولا يضع

فقد يظن شجاعاً من به خرق
وقد يظن جباناً من به زمع

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى
وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

ليست صباية مشتاق على أمل
من اللقاء كمشتاق بلا أمل

ولكن إذا لم يحمل القلب كفه
على حالة لم يحمل الكف ساءده

وكل يرى طرق الشجاعة والندى
ولكن طبع المرء للمرء قائد

فإن قليل الحب بالعقل صالح
وإن كثير الحب بالجهل فاسد

ومن سرّ أهل الأرض ثم بكى أسى
بكى بعيون سرّها وقلوب

فرب كتيب ليس تندى جفونه
ورب ندى الجفن غير كتيب

وما كل ذى لب بموتيك نصحه
وما كل مؤت نصحه بليب

وفى تعبٍ من يحسُدُ الشمسَ نورُها
ويطمعُ أن يأتى لها بضربٍ

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت
على عينه حتى يرى صديقها كذبا

ولست أبالي بعد إذ راكى العلاء
أكان ثرائاً ما تناولت أم كسباً

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظن أن الليث يبتسم

الهجر أقتل لي ممّا أراقبه
أنا الغريق فما خوفي من البلل

قد ذقت شدة أيامي ولذتها
فما حصلت على صاب ولا غسل
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

لا تعذل المشتاق في أشواقه
حتى يكون حشاك في أحشائه

إن القتل مضرّاً بدموعه
مثل القتل مضرّاً بدمائه

ولا تطمعن من حاسد في مودة
وإن كنت تبديها له ونيل

يهون علينا أن تُصابَ جُسمُنا
وتسلم أعراضُنا وعقولُ

وما كلُّ من قال قولاً وفى
ولا كلُّ من سيم خسفاً أبى

والأمرُ لله ربّ مجتهد
ما خاب إلاّ لأنه جاهد

فإن تكن «تغلب» الغلباء^(١) عنصرها
فإن في الحمرِ معنى ليس في العنب

أفدى ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلةً

أعجازهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست ممّوهة

تركت لون مشبي غير مخضوب
ومن هوى الصّدق في قولي وعادته

رغبت عن شعري في الرأس مكذوب
ليت الحوادث باعتنى الذي أخذت

منى حلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعة

قد يوجد الحام في الشبان والشيب

وهذه ثروة من المثل السائر لا نعلم لها نظيراً
فيما يستشهد به من مفردات الشعراء الكبار ومتفرقاتهم،
غير شواهد «شكسبير» في رواياته التي زادت على
الثلثين، وهي على رجحانها في الكثرة لا يجد فيها

(١) تطاق الغلباء على «تغلب» قبيلة سيف الدولة

البراقة من غواية المعدن الأصيل ، إذا تجاذبته القوتان
في وقت واحد .

و« المتنبي » لم يُعرض عن المحسنات البديعية ، ولكنه
أخذ منها بالقسط الذى يأتى إليه طواعية ، لخدمة
طبعه لا لتسخيره واستخدامه . وأكثر ما كانت محسناته
من قبيل التشريع والمقابلة والتعريف والتقسيم ، وهى من
وسائل تحلية المعنى بالتوضيح والتبيين وقلم تذهب به
مذهب التزيق والتنميق ، ومن أمثلتها وهى غير قليلة
في شعره .

قوله :

فيا شوق ما أبقي ، ويالى من النوى

ويا دمع ما أجرى ، ويقلب ما أضى

أو قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى

وأنشئ وبياض الصبح يغرى بى

أو قوله :

تملكها الآتى تملكك سالب

وفارقها الماضى فراق سلب

أو قوله :

بفرع يعيد الليل والصبح نير

ووجه يعيد الصبح والليل مظلم

أو قوله :

نعج محاجرته ، دُعج نواظيره

حمر غفائره ، سود غدائره

أو قوله :

شراكها كورها ، ومشفرها

زمامها ، والشموع مقودها

أو قوله :

بصارى مرتد ، بمخبرتى

مجتري ، بالظلام مشتمل

طلاب الشواهد أمثلة أوفق لموضعها ، وأصدق في
دلائها على تجارب الحياة من هذا الفيض الزاخر في
ديوان « أبى الطيب » على صغره ، بالقياس إلى منظوم
« شكبير » ومنثوره ، وتتساوى شواهد الشعارين
في خصلة واحدة ، ينتفع بها نقاد الأدب الذين يخلطون
بين شعر الحكمة وشعر التفكير المجرد من البواعث
النفسية ، فإن كلمة الحكمة تخدع هؤلاء فيحسبونها
ضرباً من حكمة التعقل الخفض الذى يشبه معادلات
الرياضة وحقائق الحساب ، وهى فى الواقع تحتوى
من بواعث النفس وشواغل العاطفة ألواناً لا يحتويها
شعر الغزل ولا شعر الحماسة ، لأنها خلاصة تجارب
الحياة بما وسعت من أمل ويأس ، ومن فرح وحزن ،
ومن فلاح وخيبة ، ومن حب وبغضاء ، ومن خلاف
ووافق على نوازع الحس ومذاهب الآراء ، لا يدركها
الشاعر لأنه تأمل فيها بينه وبين أوراقه ومطالعاته ،
ولكنه يدركها لأنه خاض غمار دنياه ، وتمرس بأفاتها ،
وابتلى بما يقيمه ويقعده من أهوالها وشدائدها ، وليس
رضا السامع عنها لأنها فكرة صحت حسبها كما
تصح جداول الحساب عنده ، وإنما يرضى عنها
رضا الارتياح لما وافق شعوره ، ولما فسر له من
غوامضه وبسط له من مغلقاته وأساراه .

وهذه هى مزية الطبع الصادق والحكمة « الحيوية »
التي امتاز بها « أبو الطيب » فجعلته بحق شاعر العربية ،
ولسان عبقريتها وترجمان بلاغتها . وهى مزية يتممها
السؤال عن مكان الفن فى لفظه ومعناه ، بعد العلم
بمكان « الطبع » من تعبيره ، ولا بد من هذا السؤال فى
التعريف بشاعر مشهور بلغ بالشهرة غاية مداها فى
القرن الرابع للهجرة بعد أيام « ابن المعتز » و« مسلم بن
الوليد » و« أبى تمام » وهو من قراء شعره وجامعى
ديوانه كما قيل ، فقد يكون هوى الفن المصنوع امتحاناً
قوياً لذلك الطبع القوى ، وبياناً لما تستطيعه فتنة الحلية

ومن محسناته ما يعد من قبيل الإدلال بالقدرة
اللغوية كقوله الذي أراد أن يجمع فيه أكثر ما يجمع
من الأفعال في بيت واحد :

عِشْ ، أَبْقِ ، أَسْمُ ، سُدْ ، قُدْ ، جُدْ
مُرْ ، أَنَّهُ ، أَسْرِ ، فَه تَسْلُ
عِظْ ، أَرْمِ صِيبَ ، أَحْمِ ، أَغْزِ ، أَسْبِ
رُغْ ، زَعْ ، دِ ، لِ ، آثْنِ ، نُلِ
وهذا دُعَاءُ لَوْ سَكَتُ كُفَيْتُهُ
لَأَنْتِ سَأَلْتُ اللَّهَ فَيْكَ وَقَدْ فَعَلْ

وقد يغرم أحياناً بتشبيهات كتشبيهات ابن المعتز
التي يكثر فيها من ذكر الجواهر والكواكب كما قال
متغزلاً :

واستقبلت قمرَ السماءِ بوجهيها
فأارتني القمَريَّينِ في وقتٍ معاً
أو كما قال :

سَفَرَتْ وَبَرَقَتْهَا الْفِرَاقُ بِصُفْرَةٍ
سَتَرَتْ مَحَاجِرَهَا ، وَلَمْ تَكُ بُرْقُعَا
فَكَأَنَّهَا - وَالِدَمْعُ يَقْطُرُ فَوْقَهَا -
ذَهَبٌ بِسِمْطَي لَوْلُؤٍ قَدْ رُصَّعَا

فإذا أضيفت هذه الحلية الفنية إلى المعدن الأصيل
فهى في النهاية جلاء ، لما عنده من الحسن المطبوع
ولست من قبيل الطلاء يمسح باليدين ، أو التمويه
لا يجوز إلا بإغضاء من العينين .

